الدرس الثاني: مدخل إلى علم الدلالة(2) العناية بالدلالة عند القدامى: اليونان، والهنود، والعرب

1/ الدلالة عند القدماء: إن البحث في المعنى أو الدلالة من أقدم الاهتمامات الفكرية للإنسان. وما هذه المكانة التي تبوّأها علم الدلالة في العصر الحديث إلا ثمرة تفكير موغل في القدم في قضايا المعنى سواء عند اليونانيين أم عند الهنود، أم عند العرب، أم عند غيرهم.

أ/ الدلالة عند اليونان:

لقد كانت قضية الدلالة مرتبطة عند اليونان بعدد من التساؤلات الفلسفية؛ من بينها ما طبيعة العلاقة بين اللفظ (الدال) والمعنى (المدلول)؟ هل هي طبيعية أم مجرّد تواضع وعرف إنساني؟ فذهب أفلاطون متبعا معلمه سقراط إلى أنها طبيعية (محاكاة أصوات الطبيعة) مضيفا أن تلك العلاقة الطبيعية (كمُواء القط، وعواء الذئب، وخرير المياه، وصفير الرياح...) كانت واضحة سهلة التفسير في نشأتها الأولى، ثم تطورت الألفاظ فلم يعد من السهل أن نتبيّن تلك الصلة بين اللفظ ومعناه. أما أرسطو فرأى أن العلاقة بين الدال والمدلول اصطلاحية عرفية. مميزا بين ثلاثة أشياء:

_ الأشياء في العالم الخارجي

_ التصورات أو المعاني

_ الأصوات أو الرموز، أو الكلمات

وإذا جئنا إلى تقسيم أرسطو للكلام فسنجده قائما على أساس دلالي؛ فالاسم والفعل لهما في نفسيهما معنى خلافا للحرف؛ إذ لا دلالة له إلا إذا ارتبط بغيره من اسم أو فعل.

من أهم القضايا الدلالية التي جذبت اهتمام اليونانيين التغير الدلالي. وقد ربطوه بالتغير الحضاري.

ب/الدلالة عند الهنود:

لم يكن الهنود أقل شأنا من اليونان من حيث الاهتمام بالدلالة، ومن الموضوعات التي ناقشوها:

ـ علاقة اللفظ بالمعنى؛ أي: الدال بالمدلول.

ـ أنواع الدلالات، وجعلوها أربعة أقسام:

قسم يدلّ على مدلول عام(شامل) مثل: انسان.

قسم يدل على كيفية مثل: طويل.

قسم يدل على حدث مثل: جاء.

قسم يدل على ذات مثل: محمد.

كما تحدّثوا عن دور المجاز في تغير المعنى.

ج/ الدلالة عند العرب:

لم يكن العرب أقل شأنا من الأمم الأخرى من دراسة المعنى إذ نجد في تراثنا مجموعة من المصطلحات الدلالية؛ منها: اللفظ والمعنى، المشار إليه، والتصور الذهني، والدال، والمدلول، والفكرة... إلا أن الإحاطة بجهود علماء العربية ـ كافة ـ في دراسة الدلالة يحتاج إلى وقت طويل، وبحث عميق في كتب التراث. وهذا الذي بين أيدينا لا يعدو أن يكون إشارات.

أ- عند اللغويين: لقد كان اهتمام لغووي العربية بالقضايا الدلالية منذ بداية التصنيف اللغوي؛ فعلماء المعاجم؛ أو واضعوها أقاموا معاجمهم على أساس دلالي؛ إذ جمعوا ألفاظ العربية، ودوّنوا دلالاتها وكيف أن تلك الدلالات تختلف باختلاف السياقات التي ترد فيها. وهذا الخليل يقيم معجمه (العين) على مبدأ المستعمل والمهمل. والفرق بينهما دلالي؛ إذ المستعمل ما دلّ على معنى خلافا للمهمل الذي لا دلالة له.

وابن فارس تحدّث عما يعرف بالعلاقة الدلالية بين المشتقات المختلفة للأصل الواحد. وقد أقام معجمه المقاييس على هذا الأساس. مثال ذلك ما أوردناه في تعريف الدلالة.

ثمة نوع آخر من المعاجم المصنفة دلاليا، وهي معاجم المعاني، أو ما يعرف بالمعاجم المُبَوّبة. وقد كان العرب من السباقين إلى هذا النوع من التصنيف، وفاقوا فيه غيرهم. استهلوها بالرسائل اللغوية؛ وهي مصنفات صغيرة كل واحدة منها في مجال معين. كالسلاح والإبل، والشاء، والنخل، والنبات، وخلق الإنسان... وغيرها من الرسائل التي يزخر بها التراث العربي. وصولا إلى المعاجم الضخمة كمخصص ابن سيده. هذا الأخير الذي يؤكد على أن اللغة ظاهرة اجتماعية وألفاظها اختيارية بقوله: إنها عملية تحكمية تلك التي يتم بها اختيار الدال. والاختيار لا يقوم به فرد إنما هو من وضع الجماعة.

كما نجد ابن جني يتحدّث عن الرابط الدلالي ذاهبا فيه مذهبا تميز به عن غيره. وذلك في حديثه عن الاشتقاق الأكبر. قال: «أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثية فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا تجتمع التقاليب الستة وما يتصرّف من كل واحد منها عليه»

مثال ذلك مما ذكر: مادة (كلم) جميع مشتقات المادة ومشتقات مقلوباتها تشترك في معنى القوة والشدة ـ حسب ابن جني ـ من ذلك (الكلام) لأنه يقرع السمع، ويؤثر فيه. و(الكَلْمُ) الجَرْحُ. و(الكُلام) ما غلُظ من الأرض. و(الكامل)ـ وهو مشتق من مقلوب (كلم) ـ ضدّ الناقص. والقوة في (لكم) ـ وهو المقلوب الأخر ـ ظاهرة. كما في (مكل) ومنه بئر مكول؛ إذا قلّ ماؤها...

كما نجد في كتابه ـ الخصائص ـ بابا بعنوان (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني) يؤكد فيه على أن التقارب الصوتي بين الكلمات يؤدي إلى التقارب الدلالي مثاله الهز والأز. كما له باب آخر بعنوان (مناسبة الألفاظ للمعاني). بين فيه أن العرب يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر عنها. مثال ذلك القضم لأكل اليابس، والخضم لأكل الرطب.

هذا وأشار علماء اللغة العرب إلى قضايا دلالية مختلفة؛ منها الاشتراك اللفظي، والأضداد، والترادف، وسيتم التعرّف عليها لاحقا.

ب ـ عند النحاة: على غرار اللغويين لم تخل كتب النحاة من الحديث عن الدلالة منذ كتاب سيبويه؛ سواء عند حديثه عن العلامة الإعرابية وما تؤديه من دور في تحديد الدلالة التركيبية؛ من فاعلية، ومفعولية، وظرفية... وغيرها. أم عند حديثهم عن حروف المعاني ودلالاتها. أم عند حديثهم عن القرائن النحوية لفظية كانت أومعنوية. كما أن تقسيمهم الكلام إلى اسم وفعل وحرف تقسيم دلالي؛ ذلك أن الاسم والفعل دالان على معنى في نفسيهما. خلافا للحرف؛ الذي يكتسب معناه مما يرتبط به.

ناهيك عن الذكر في مقابل الحذف، والتقديم في مقابل التأخير. وإن كانت هذه الأخيرة من اهتمامات علم البلاغة. وما ذلك إلا دليل على وثاقة الصلة بين العلمين.

ج ـ عند علماء الأصول: لعلّ علماء الأصول ـ أصول الفقه الإسلامي ـ من أوائل من اهتم بالدلالة عند العرب، منذ الإمام الشافعي(204ه) أول من وضع أبواب الأصول؛ وذلك لأن استنباط الأحكام الشرعية من النصوص القرآنية منوط بالفهم الصحيح للدلالة. هذه الأخيرة

التي قد تكون مباشرة واضحة، أو غير مباشرة؛ لإدراكها يجب الوقوف على العناصر المحدّدة لها؛ من سياق لغوي يفهم من اللغة، وغير لغوي متمثل في أسباب النزول.

لأجل ذلك قسم علماء الأصول الدلالة إلى: دلالة أصلية وضعية ويسمونها الإفرادية، وهي المتفق عليها، وشرعية: وهي اللفظ المستعمل في المعنى الموضوع له شرعا ككلمة (الصلاة) دلالتها الأصلية الوضعية هي الدعاء. والشرعية هي ركن من أركان الإسلام، وهي عبادة تؤدى بكيفيات مخصوصة، وأقوال مخصوصة، تقربا من الله تعالى.

كما قسم علماء الأصول دلالة اللفظ على المعنى إلى خاص وعام، ومشترك ومؤول.

وقسموها بحسب استعمال اللفظ في المعنى إلى دلالة حقيقية مجازية، وكناية وتصريح.

وقسموها حسب دلالة اللفظ على معناه إلى ظاهرة وخفية. وقسموا الظهور والخفاء إلى مراتب.

مراتب الظهور: ظاهر، ونص، ومفسر، ومحكم.

مراتب الخفاء: خفي، ومُشْكَل، ومجمل، ومتشابه.

ولعل (كتاب المستصفى في علم الأصول) للغزالي خير مثال على جهود علماء الأصول في دراسة الدلالة. ومما تناوله زيادة عما سبق ذكره تقسيمه للدلالة إلى دلالة مطابقة، ودلالة تضمين، ودلالة استلزام. متأثرا في ذلك بالفلاسفة. مما سيتم توضيحه في موضعه.

كما قسموا الدلالة باعتبار كيفيتها إلى لفظ دال بالعبارة، وآخر بالإشارة، وثالث بالدلالة، ورابع بالاقتضاء..... إلى غير ذلك من القضايا الدلالية.

د ـ عند الفلاسفة:

أن بحث الدلالة عند فلاسفة العرب القدامى من أمثال الفارابي وابن سينا ارتبط بالدلالة اللفظية. وكانوا متأثرين بأرسطو في تحديد مفهومها؛ فهي عندهم الأثر النفسي للفظ.

لعل أول قضية دلالية استرعت اهتمام الفلاسفة العرب ـ على غرار غيرهم من الفلاسفة ـ هي نشأة اللغة وما يترتب عنها من حديث بين علاقة الدال بالمدلول. وأكثرهم على أن منشأها اصطلاحي، مصرحين بالعلاقة الوضعية ـ الاعتباطية في اصطلاح اللسانيات الحديثة ـ بينهما. وإن كان ذلك يفسر استمرارية اللغة لا نشأتها الأولى التي ثار جدل كبير حولها فمن قائل

بالإلهام والتوقيف، ومن قائل بمحاكاة أصوات الطبيعة، ومن قائل بغريزة الكلام، ومن قائل بالتواضع والاصطلاح. جدل لم يوصل إلى نتائج يقينية حتى دعا فقهاء اللغة وعلماءها إلى تنحية مبحث نشأة اللغة من مباحث فقه اللغة.

ممن يؤكد على اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول **الفارابي** بقوله: «ثم كلما حدث في ضمير إنسان منهم احتاج أن يفهمه غيره ممن يجاوره اخترع تصويتا فدلّ صاحبه عليه.» فالدافع للتواضع والاصطلاح هو الحاجة للتعبير والتواصل مع الأخرين.

ومما قام به فلاسفة العرب تقسيم الدلالة إلى طبيعية ووضعية، وعقلية؛ الأولى يحيل فيها الدال على المدلول بطريقة طبيعية ذاتية مثالها الأصوات المحاكية للطبيعة من خرير مياه، وطرق باب وغيره. والثانية ما يحيل فيها الدال على المدلول بالتواضع والاصطلاح. فلكي تنعقد الدلالة لابدّ من ثلاثة أمور كما يقول الأرموي: اللفظ؛ وهو نوع من الكيفيات المسموعة، والمعنى الذي جُعل اللفظ بإزائه، وإضافة عارضة بينهما وهي الوضع. والثالثة نتوصل إليها بواسطة العقل. وهو ما يسميه الفلاسفة علاقة الاستلزام؛ كدلالة لفظ السقف على الأعمدة لأنه ـ عقلا ـ لا يقوم إلا بها.

إذن لفظ السقف يدل على معنى السقف بدلالة المطابقة؛ لأنه إنما وُضع للدلالة عليه. وعلى معنى الأعمدة بدلالة الاستلزام. مما ذكره الفلاسفة واقتبسه علماء الأصول كما ذكرنا سابقا زيادة عن دلالة التضمين؛ حيث يدل اللفظ على معناه بدلالة المطابقة، وعلى ما يتضمنه بدلالة التضمين. مثال ذلك: دلالة لفظ الزهرة على معنى الزهرة بدلالة المطابقة وعلى القرنفل، والأقحوان، والياسمين...وغيرها من الأزهار بدلالة التضمين.

ه ـ عند البلاغيين:

لم يكن علماء البلاغة أقل شأنا من غيرهم من حيث الاهتمام بقضايا الدلالة. ولعل المقولة البلاغية الشهيرة: لكل مقام مقال خير دليل على ذلك.

لقد كانت الدلالة حاضرة في كل مبحث من مباحث علم البلاغة؛ فقد كان الحديث في علم المعاني عن دلالات الأساليب المختلفة؛ خبرا وإنشاء، وعن دلالات أضرب الإنشاء المختلفة؛ طلبية، وغير طلبية. وكان الحديث أيضا عن دلالة التقديم والتأخير، والذكر والحذف وغيرها.

أما في علم البيان فكان الحديث عن الدلالة الحقيقية والمجازية والأمر في ذلك منوط بالدلالة. وقد فصلوا الحديث عن أنواع المجاز وكيف تتحول الدلالة مما وضعت له أصلا إلى دلالة مغايرة لعلالقة من العلاقات المجازية المختلفة أما علم البديع فنجد تقاطعا واضحا بينه وبين علم الدلالة الحديث في دراسته الجناس التام؛ ذلك الذي يتم تناوله في علم الدلالة تحت اسم الاشتراك اللفظي؛ وهو دلالة اللفظ الواحد على أكثر من معنى. وسيتم تناوله في مبحث مستقل من مفردات المادة إن شاء الله. كما نجد في علم البديع الطباق وهو المسمى في علم الدلالة التضاد الدلالي.

من علماء البلاغة نذكر عبد القاهر الجرجاني(471ه) الذي يتحدث عن الدلالة في ضوء نظرية النظم. ودلالة الألفاظ عنده مرتبطة بما تفيده من معنى عند التركيب (ينظر: أسرار البلاغة للجرجاني). يقول في (دلائل الإعجاز) في (الفرق بين الحروف المنظومة والكلم المنظومة): «ذلك أن نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضى عن معنى ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه. فلو أن واضع اللغة كان قد قال: (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد. وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك؛ لأنك تقتضي في نظمها آثار المعاني وترتّبها على حسب ترتيب المعاني في النفس.»

وهذا حازم القرطاجني (684ه) يقول في (منهاج البلغاء وسيراج الأدباء): إن المعاني هي الصور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان، فكل شيء له وجود خارج الذهن، وأنه إذا أُدرك حصلت له صورة في الذهن. وهو ما يعرف في علم الدلالة بالدال والمدلول.

مصادر البحث ومراجعه:

الحروف للفارابي

أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز للجرجاني.

منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني.

العبارة لابن سينا.

الشفاء لابن سينا.

علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي لمنقور عبد الجليل.

العين للخليل بن أحمد الفراهيدي.

مقاييس اللغة لابن فارس.

الخصائص لابن جني.

الرسالة للشافعي.

الدلالة اللفظية لمحمود عكاشة.

المستصفى للغزالي.